المحاضرة الخامسة: مفهوم النقد الاجتماعي:

ينطلق النقد الاجتماعي من فكرة علمية تجريبية ظهرت في أوربا خلال القرن التاسع عشر، تقوم على ملاحظة علاقة الكائنات العضوية بالبيئة أو الوسط الذي تعيش فيه، حيث انتبه العلماء إلى تأثير المحيط الخارجي في تشكّل نمط الحياة عند تلك الكائنات الحية، ثمّ انتقلت الفكرة إلى الأدب، وتفطّن النقاد إلى أهميّة العوامل الخارجية في تشكيل النص الأدبي.

في السياق ذاته، لا يمكن الحديث عن القراءة الاجتماعية للأدب بمنأى عن القراءة التاريخية له، فالنقد الاجتماعي ليس فكرة مستقلّة بذاتها، وإنّما هي امتداد للسياق التاريخي وفق رؤية جديدة، "فالنقد الاجتماعي يشير إلى قراءة ما هو تاريخي واجتماعي وأيديولوجي وثقافي في هذا التمثّل الغريب الذي هو النصّ"[1]، ذلك أنّ النص الأدبي يرتبط بالحياة الاجتماعية، وسائر المؤثرات التاريخية والفكرية... تؤثّر فيه ويتأثّر به، وقد أعقب هذا الطّرح ظهور مصطلحات نقدية جديدة ذات طابع اجتماعي تتمثّل في: الفنّ للحياة بدل الفنّ للفنّ، الالتزام في الأدب، الأدب تعبير عن المجتمع، الانعكاس، الأديب والجمهور، وغيرها.

يعرّفه (صلاح فضل) بأنّه المنهج الذي: "تبقّى في نهاية الأمر من المنهج التاريخي، وانصبّت فيه كلّ البحوث والدراسات التي كانت في البداية متّصلة بفكرة الوعي التاريخي، إذ سرعان ما تحوّل هذا الوعي إلى وعي اجتماعي يرتبط بطبيعة المستويات المتعدّدة للمجتمع، وبفكرة الطبقات، وبفكرة تمثيل الأدب للحياة على المستوى الجماعي وليس على المستوى الفردي، بمعنى أنّه كلّما اعتبرنا الأعمال الأدبيّة تعبيرا عن الواقع الخارجي، كان ذلك مدخلا لربطها بتفاعلات المجتمع وأبنيته ونظمه وتحوّلاته، باعتبار هذا المجتمع هو المنتج الفعلي للأعمال الإبداعية والفنيّة"[2]، ممّا يعزّز فكرة إسهام المنهج التاريخي في رسم الأُطر العامّة للمنهج الاجتماعي وتحديد توجّهاته ومبادئه.

أسهمت جهود (مدام دي ستايل De Staël 1766/ 1817م) من خلال كتابها: عن الأدب وعلاقته بالنظم الاجتماعية 1800م، وجهود (شاتو بريان Chateaubriand 1768/ 1848م) من خلال كتابه: عبقرية المسيحية 1802م، في توجيه دفّة الوعي الفكري نحو المجتمع وعلاقة الأديب بمجتمعه، فكان بحثهما في خصوصية الكتابة، ومبادئ التحليل النقدي، في أهدافه وغاياته، ومساءلتهما للوعي الاجتماعي والتاريخي في الكتابات الفكرية والأدبيّة، دور فاعل في التنظير للنقد الاجتماعي.

كما غذّت الاتّجاه الاجتماعي في النقد، أبحاث كلّ من (هيبوليت تين) من خلال ثلاثية: الجنس، البيئة، العصر، و(كارل ماركس Karl Marx 1883/1818م) من خلال فكرة تقسيم الواقع إلى بنيتين: فوقية (الإيديولوجيا والثقافة والفنون) وتحتية (النظم الاقتصادية والاجتماعية والمعمارية ووسائل الإنتاج)، والأدب عنده فعالية اجتماعية وانعكاس للظروف الاجتماعية والمادية المحيطة به، وعلى الناقد ربط الأدب بالبنيتين الفوقية والتحتية لتفسيره، و(جورج لوكاش Georg Lukács 1971/1885م) الذي تبنّى رؤية (كارل ماركس) في نظرية الانعكاس، والتي نظر من خلالها إلى الأدب على أنّه انعكاس وتمثيلٌ للواقع، ليس تمثيلا ظاهريّا أو حسيّا، وإنّما هو تفاعل تامّ وتجربة عميقة يخوضها الأديب لكشف خلفيات ذلك الواقع ورصد تفاصيله بكلّ صدق وأمانة، والأديب في هذه الحالة، مُلزم بتغيير واقعه نحو الأفضل.

1. النقد الاجتماعي عند الغرب:

يذهب كثير من الدّارسين إلى أنّ بداية الاهتمام بالسياقات الاجتماعية في الأدب تعود إلى (مدام دي ستايل) من خلال كتابها: عن الأدب وعلاقته بالنّظم الاجتماعية 1800م، حيث طرحت فكرة تأثير الظواهر الاجتماعية من عادات وتقاليد وأعراف دينية وغيرها من عوامل الهويّة القوميّة في الإنتاج والذوق الأدبي، ومدى تأثير الأدب فيها، وهي ترى أنّه: "لا نستطيع أن نفهم الأثر الأدبيّ وتذوّقه تذوّقا حقيقيّا في معزل عن المعرفة بالظروف الاجتماعية التي أدّت إلى إبداعه وظهوره، والأدب برأيها يتغيّر بتغيّر المجتمع ويطّرد تطوّره مع تزايد القدر الذي يحظى به المجتمع من الحريات الفردية والعامّة[3]، وقدّمت دليلا على قراءتها التعاقبيّة للأدب، بالأدب الفرنسي الذي تغيّرت أغراضه ومضامينه نتيجة التغيير الاجتماعي والتاريخي في فرنسا.

كما أسهمت مقولة (دي بونالد De Bonald 1840/1754م): الأدب تعبير عن المجتمع، في التأسيس لما يسمّى بعلم اجتماع الأدب La Sociologie de la littérature، الذي يرتكز على دراسة الظواهر الاجتماعية في الأدب، ومن ثمّة تفسيره وتأويله انطلاقا من معطياتها.

تقدّم (هيبوليت تين) من خلال ثلاثية: الجنس، البيئة والعصر، خطوة إلى الأمام في مجال النقد الاجتماعي للأدب الغربي، حيث أخضعه، أي الأدب، إلى قواعد علميّة دقيقة وموضوعيّة، وجعل تلك العناصر الثلاثة أطرا عامّة يتحرّك داخلها الإنتاج الأدبي، فتُعين على شرحه وفهمه ونقده، وإن كانت الأحكام النقدية القائمة على تلك الثلاثية، يغلب عليها التعميم والجزم، بما لا يخدم طبيعة الأدب وخصوصيته الجمالية التي تحقق تفرّده وتميزه عن غيره من الأجناس الفنيّة، غير أنّها عُدّت إرهاصا لقراءة

العمل الأدبي في سياقاته الاجتماعية والتاريخية، بما يكشف علاقة التأثير والتأثّر بين الأدب والعوامل الخارجية المسهمة في إنتاجه والمتدخّلة في وجوده.

أمّا الماركسية (نسبة إلى كارل ماركس)، فقد أضافت البعد الإيديولوجي للأدب، وصنّفته ضمن عناصر البنية الفوقية Superstructure (عالم الإيديولوجيا والثقافة والفنون...) وأيّ تغيير يطرأ على البنية التحتية Infrastructure (النظم الاقتصادية والاجتماعية والمعمارية ووسائل الإنتاج) يصحبه بالضرورة تغيير في البنية الفوقية ومنها الأدب، والأدب من هذا المنظور المادّي، يدخل في علاقة جدلية بين البنيتين الفوقية والتحتية، تعمل على تحديد طبيعته وغايته وتتدخّل في تفسيره.

أفرزت الفلسفة الماركسية في النقد الاجتماعي للأدب، موقفا ينطلق من نظريّتين:

- النظريّة الماديّة: أفكارها مستمدّة من فكر الطبقة العاملة وقوى الاشتراكية.
- النظريّة المثالية: أفكارها مستمدّة من فكر الطبقة الإقطاعيّة والرأسمالية.

والانحياز إلى إحدى هاتين النظريّتين هو انحياز إلى موقع اجتماعي محدّد، وعلى الناقد أن يختار أيّ موقف ينطلق منه في العملية النقدية، وفي كلتا الحالتين، يكون رأيه النقدي فرديّا ينبذ كلّ رأي آخر يخالفه.

فالجمالية الماركسية مثلا، ترى أنّ الفنّ مشروط بعلاقات الإنتاج المادّية وبالوضع الطبقي، وكلّ تغيير فيهما يؤدّي إلى تغيّر الفنّ، والفنّ الأصيل هو الذي يعبّر عن وعي الطبقة الصاعدة ويصوّر مصالحها، في حين يذهب (هربرت ماركوز Herbert Marcuse 1898/ 1979م)، إلى أنّ الفنّ الحقيقي هو الذي يعبّر عن مصالح البروليتاريا أو الطبقة العاملة، من منظور إنسانيّ ينأى عن الطبقية الاجتماعية[4].

وعليه يمكن القول بأنّ النقد الاجتماعي عند الماركسيين، تتجاذبه نزعات واتّجاهات فكرية متباينة ومتناقضة، فعلى سبيل المثال، نجد تباينا واضحا بين أفكار الواقعية الاشتراكية والواقعية النقدية[5]، إذ يعتقد أنصار الأولى أنّ التناقض بين الطبقة البرجوازية والطبقة الكادحة حاصلٌ لا محالة في المجتمع، وهم يؤمنون به، كما يؤمنون بالحلّ الثوري الدّموي لتحقيق النصر للطبقة الكادحة، أمّا أنصار الواقعية النقدية، فهم يدركون ذلك التناقض بين البرجوازيين والعمّال الكادحين، ويرون فيه صورة للصراع

الطبقي الجائر، الذي لا يمكن إيجاد حلول له، فأوعزوا الأمر إلى شرور الإنسان وجور المجتمع، لهذا كانت فنونهم، ومنها الأدب، تغلب عليها النزعة التشاؤميّة السلبيّة.

عطفا على ما قيل، يعدّ (جورج لوكاش) امتدادا للفكر الماركسي في الفلسفة والنقد، وهو يرى بأنّ الأدب انعكاس للواقع، فكانت نظريته الواقعية في النقد تقوم على ركيزتين مهمّتين هما: التاريخ والمجتمع، وتجلى ذلك في قراءته للرواية التاريخية، حيث فرّق بين الأدب الواقعي وغير الواقعي كالآتي: "إنّ الأدب الذي يحاكي الواقع ويصوّره، إذا لم يتضمّن منظورا يدعو لتغييره، فهو أدب غير واقعي، حتى وإن استند في كتابته إلى هذا الواقع، وعلى هذا فإنّ الواقعية في العمل الأدبي لا تعود إلى صلة الأدب بالواقع الذي يصوّره وإنّما إلى المنظور التاريخي والمستقبلي الذي يشتمل عليه هذا العمل"[6]، ومهمّة الأديب هي الوعي بمشكلات واقعه، ومن ثمّة تقديم الحلول والبدائل بهدف تغيير الواقع إلى الأفضل، وليس الاكتفاء بتصويره آليّا وسطحيّا ورصد عيوبه ونقائصه دون نظرة استشرافية تبعث على التفاؤل بمستقبل باهرٍ في ظلّ التغيير.

2. **النقد الاجتماعي عند العرب:**

يعتقد الباحث (شايف عكاشة) أنّ أبرز من تزعّم الاتجاه الاجتماعي في النقد الأدبي هو الناقد (أحمد أمين)، حيث يعرّف الأدب الاجتماعي بكونه: "نظرة الأدباء إلى مجتمعهم الحاضر، يشتقون منه رواياتهم وأقاصيصهم وشعرهم ومقالاتهم ويصوغون منه فنونهم الأدبية، أمّا موضوع الأدب الاجتماعي فهو: فلاح بائس، صانع مسكين، زوجة تعسة، فقر ومرض... ومئات من أمثال هذه المآسي التي تنتظر من الأديب أن يعالجها ويشرحها ويعلّلها"[7]، وتجلّى ذلك في بعض مقالاته وكتاباته النقدية التي يؤكّد فيها على أنّ الأدب لا يعبّر عن فرديّة صاحبه وإنّما عن المجتمع الذي يعيش فيه، فيعبّر عن مشكلاته ويُسهم في إصلاحه ونهضته.

إلى جانب (أحمد أمين)، دعا الناقد (سلامة موسى) في كتابيه: الأدب الانجليزي الحديث، والأدب للشعب، إلى ضرورة التزام الأديب بقضايا الشعب، مع اقتراح قيم وطنية واجتماعية وفكرية وأخلاقية وإنسانية جديدة، وهاجم في المقابل الأدب العربي القديم لخلوّه من تلك القيم أو بعضها، كما أنّه أدبٌ تطغى عليه النزعة الفردية/ الذاتية، برأيه.

تحدّث (عباس محمود العقاد) في كتابه: دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية، عن المنهج الاجتماعي وعن الواقعية Réalisme في الأدب، باعتبارها إحدى مقولات النقد الاجتماعي، والتي ظهرت، في حركتها التاريخية، كرد فعل على دعوة الرومانيين إلى تجميل الأدب من جهة، وإبراز الطابع الشخصي في الكلام من جهة أخرى، برأي (العقاد)، فنادت الواقعية إلى ضرورة تحرير الفكر من الخيال والأوهام، والاتجاه نحو تصوير مشاهد الواقع وتفاصيله الحقيقية، وبالغت بعض اتّجاهات الواقعية في تجريد الأدب من الفنيّة والخيال، بما لا يتّفق مع طبيعة الأدب الجمالية، وفي هذا يقول (العقاد): "إنّ الواقعية الصادقة لا تجرّد البشرية من أحلامها، ولا تجرّد الدنيا من محاسنها، فلا يُعاب الأدب الذي يصوّر لنا الإنسان على حقيقته، والدنيا على حقيقتها"[8]، أي أنّ الأدب الحقيقي يجمع بين الفنيّة والواقعية، كما أنّ جوهر الأحكام النقدية هو الاعتدال في الجمع بين شكل العمل الأدبي ومضمونه، ولا إقصاء لأحدهما على حساب الآخر، وتلك هي ركيزة النقد الاجتماعي، وإن كان هذا الأخير في قراءته للنص الأدبي، ينطلق من المضمون/ الموضوع وصولا إلى الشكل.

طبّق (العقاد) قواعد النقد الاجتماعي في بعض دراساته، متأثّرا بالمباحث والعلوم الإنسانية الغربية التي كانت رائجة حينها، وأهمّ تلك الدراسات نذكر: كتاب أبي العلاء، كتاب ابن الرومي حياته من شعره، حيث تطرّق إلى نشأته ونسبه وعلاقته بالمحيطين به، والسياقات التاريخية والنفسية التي أسهمت في تشكيل شعره.

عرّف (العقّاد) الأدب من خلال علاقته بالإنسان والحياة، يقول: "ما الحياة وما الأدب؟ شيئان كلا نسيجهما من مادّة واحدة، فالحياة هي شعور تتملّاه في نفسك وتتأمّل آثاره في الكون وفي نفوس غيرك، والأدب هو ذلك الشعور ممثَّلا في القالب الذي يلائمه من الكلام، وما احتاج النّاس من قبلُ إلى من يثبت لهم أنّ الأدب لا يكون بغير حياة، ولكنّهم يحسبون أنّهم بحاجة إلى من يثبت لهم أنّ الحاجة لا تكون بغير أدب، مع أنّ الأمرين بمنزلة واحدة من الحقيقة، فإنّ لكلّ حياة أدب، ولكلّ أدب حياة، والمقياس الذي يُقاس به كلاهما واحد لا يختلف في دلائله، وإن كان يختلف في وسائله"[9]، وهو تعريف يقترب كثيرا من إحدى مقولات النقد الاجتماعي، وهي: الفنّ للحياة، أو الفنّ للمجتمع، بمعنى أنّ الأديب لا يكتب لنفسه بقدر ما يكتب لغيره.

اتّهم (محمد مندور) أصحاب هذا الاتّجاه، ممّن تبنّى فكرة الفنّ للحياة، دون تبصّر في الفكرة أو محاولةٍ للتعمّق في فحواها، بقصر رؤيتهم وضعف فهمهم، حيث قال (مندور) بأنّه يسمع أصواتا ترتفع من كلّ جانب، تنادي بوضع الأدب في خدمة الحياة ومعالجة مشاكلها، وأن نكرّس إبداعنا للحديث عن الاقتصاد والمجتمع، "فلا نملك إلّا أن نصيح في عزم وقوّة بأنّ الهيئة الاجتماعية التي نعيش بينها مريضة وأنّ واجبنا تشخيص الدّاء والتماس الدّواء"[10]، وأوعز الأمر إلى الخلط في المفاهيم والقيم، ذلك أنّ مشاكل المجتمع والاقتصاد لا تُحلّ بالأدب وإنّما بالعلم والصناعة، كما أنّ عبارة (نقد الحياة) لا يُقصد بها ما فهمه (العقاد) وغيره، وإنّما قُصد بها (فهم الحياة) أي فهم النفس البشرية وما فيها من جمال.

من جهة أخرى، لقيت النزعة النقدية الماركسية عند العرب، والمُؤسِّسة للنقد الاجتماعي في الأدب رواجا واسعا، وهو ما يؤكّده الناقد (عبد الملك مرتاض) بقوله: "ولعلّ الذي جعل هذا النقد ينتشر انتشارا واسعا... أنّه يقع وسطا في رؤيته الفنيّة، وإذا استثنينا إصراره المطلق على ربط الإبداع بصراع الطّبقات، وإذا أدركنا أنّ أي كتابة فنيّة في حقيقة الأمر إنّما تكون إفرازا لقضايا اجتماعية جادّة، وأنّ الكاتب لا يكتب في الغالب من أجل أن يُضحك ويُمتع، ولكنّه يكتب من أجل تسجيل واقع اجتماعي معيش... فإنّنا نحسب أنّ النزعة النقدية الماركسية لا تعدم شيئا من التوفيق لولا إهمالها الجانب الشكلي الجمالي للكتابة الأدبيّة"[11]، بمعنى أنّ؛ النظرية النقدية الماركسية قد وُفّقت إلى حدّ بعيد في مقاربة النصوص الأدبية من وجهة نظر اجتماعية، وإن كانت قد همّشت نوعا ما الجانب الفنّي الجمالي للأدب، أو بالأحرى؛ درست الشكل من خلال المضمون، غير أنّها أفلحت في إقامة مبادئ نقدية مهمّة تلقّفها النقاد وعملوا على تطبيقها في دراساتهم حول الأدب والمجتمع.

3. **خصائص النقد الاجتماعي ومبادئه**، تتلخّص فيما يأتي:

- التداخل مع النقد التاريخي، حيث ربط بعض النقاد أمثال (هيبوليت تين) و(سانت بيف) وغيرهما بين البعدين الاجتماعي والتاريخي في النقد، على اعتبار أنّ الأدب مظهر من مظاهر الحياة، تحكمه سياقات فكرية وتاريخية واجتماعية شتّى، تؤثّر فيه ويتأثّر بها.

➢ تقوم علاقة الأديب بمجتمعه على نوعٍ من التفاعل والتّبادل، فنشاطه الأدبيّ لا يأتي من فراغ وإنّما يتولّد من الظروف الاجتماعية المحيطة به، تمدّه بالأفكار والموضوعات، فيصوغها فنيّا، ويتوجّه بها إلى جمهور المتلقّين ليعزّز وعيهم بأفكاره، ويوجّههم إليها، معبّرا عن همومهم وتطلّعاتهم.

➢ يشكّل الأدب انعكاسا للواقع والمجتمع، ولكنّه ليس انعكاسا آليّا سطحيّا، وإنّما هو نقلٌ واعٍ وعميق لمشكلات ذلك الواقع، يقتضي مبادرة جادّة من طرف الأديب في إصلاحه وتقويمه.

➢ ربط النقد الاجتماعي بين الأدب والجمهور، وبعض النقّاد من هذا الاتّجاه، يقيّمون الأعمال الأدبيّة جماليّا، انطلاقا من مدى قدرتها على التعبير عن الجمهور، ومدى تأثيرها فيه.

➢ تتردّد في النقد الاجتماعي مصطلحات كثيرة منها: الالتزام، الانعكاس، الجمهور، الواقعية، الاشتراكية، الأدب الهادف، الأدب الثوري، الفنّ للمجتمع، الفنّ للحياة، رؤية العالم وغيرها.

4. مآخذ النقد الاجتماعي، يمكن إيجازها فيما يأتي:

➢ الاهتمام بخارج النصّ، والبحث في المضمون عن الظواهر الاجتماعية والسياسية والفكرية التي أسهمت في تكوينه، أمّا الصياغة التعبيرية أو الجانب الشكلي/الجمالي للنص الأدبي، فلم تولِه العناية الكافية.

➢ بالغت الواقعية الاشتراكيّة وكذا نظريّة الانعكاس في الاعتداد بإيديولوجيا النصّ، وربطه بالمعطيات الاجتماعية تحت ما يسمّى بسوسيولوجيا الأدب أو علم اجتماع الأدب.

➢ تجاذبت النقد الاجتماعي نزعات ونظريات فكريّة متناقضة، تقوم أساسا على الصراع الطبقي، والانحياز إلى موقف اجتماعي معيّن يؤدّي إلى تعصّب الحكم النقدي الصادر عن رؤية فرديّة أو ذاتية للناقد.

➢ تحدّث هذا المنهج عن نوع من الحتميّة بين تغيّر المجتمع الاقتصادي والسياسي وتغيّر الأدب أو تطوّره، أي عن الربط الحتمي اللازم بين المادّي والفكري بمعنى أنّ؛ التطوّر الفكري والرّقي الأدبي يرتبطان أساسا بتطوّر الإنتاج المادّي للمجتمع، وفي هذا حكم تعميمي، لأنّه في أحيان كثيرة نجد المجتمع في حالة تفكّك، وأدبه يكون راقيا كما كان الأمر في العصر العباسي الثاني مثلا"[12].

➢ تنأى أحكام الناقد الاجتماعي في عمومها عن الموضوعية في تفسير النصّ الأدبي، ذلك أنّها تتجاهل في غالب الأحيان، القيم الجمالية فيه، وتركّز فقط على قيمه المضمونيّة ومدى تجسيدها للفكر

الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي، ممّا جعل من النقد الاجتماعي نقدا قاصرا ومقصّرًا في قراءاته للأدب.

ختاما، قدّم المنهج الاجتماعي مقاربات نقدية متعدّدة للنصوص الأدبيّة، وبرغم مآخذه، غير أنّه رصد بشكلٍ فاحصٍ ومفصّلٍ وجوه التأثير والتأثّر بين الأدب والمجتمع، كما طرح فكرة الالتزام التي تحمّل الأديب مسؤوليّة ما يكتب، ممّا يعمّق الصلة بين الأديب والفئة الاجتماعية التي يعبّر عنها، ويعزّز الجانب الإنساني في أدبه.